

دراسات جندرية

المرأة في زمن الحرب: اغتصاب وعنف وتشرد

حين صدر كتاب «المرأة والحرب» (تحرير كارول كوهن) بالإنكليزية عام 2012، ضمّ نصوص 12 باحثة نسوية تناوبت على رصد الرضوض العميقة التي تواجهها المرأة في الحرب، جسدياً وروحياً. العمل انتقل أخيراً إلى المكتبة العربية عن «دار الرحبة» (دمشق). ليظهر كيف أنّ المرأة لم تنتهي معاناتها مع حلول زمن السلم، فالضحية ستتحول إلى أُنثى منبوذة بسبب فعل ذكوري صرف، وغالباً ما تُرجم بالحجارة حتّى الموت!

خليفة صويلح

وفقاً لمفهوم «الهويات المجندرة»، فإن واقع المرأة في الحرب يستدعي دفع فاتورة مزدوجة. هويتها كأنثى أولاً، وإظهارها كفاءة عملية في الميدان ثانياً. بين هذين القطبين، تتأرجح أسئلة عالقة في تفسير معنى «الجنس»، رغم عشرات الدراسات النسوية في هذا المجال. لكن كتاب «المرأة والحرب» (تحرير كارول كوهن) الذي صدر بالإنكليزية عام 2012 قبل أن ينتقل أخيراً إلى المكتبة العربية (دار الرحبة - دمشق - ترجمة ريم خدام الجامع)، يتجاوز هذا المفهوم بمعناه الضيق نحو وقائع تتعلق بأثام الحروب وأثارها التدميرية على المرأة، بقراءات بانورامية لخرائط البلدان التي شهدت حروباً أهلية ونزاعات ونزوحات قسرية، أدت إلى تفكك وتمزق الروابط العائلية، وتالياً إعادة إنتاج إيديولوجيا جندرية حتى داخل مخيمات اللجوء.

12 باحثة نسوية تناوبن على رصد الرضوض العميقة التي تواجهها المرأة في الحرب، جسدياً وروحياً. وإذا بحكايات الاغتصاب أو العنف الجنسي تتفوق على ما عداها، فالحرب لا تكتمل فصولها إلا بحوادث الاغتصاب وانتهاك أجساد نساء المحاربين لدمغ تاريخ الخصوم بالعار. لن تنتهي المشكلة هنا، فالضحية ستتحول إلى أنثى منبوذة بسبب فعل ذكوري صرف، وغالباً ما تُرجم بالحجارة حتى الموت. التقسيم الجندي إذاً، يهيمن على كل

المهن حتى في الحرب، فهوية الجندي ذكورية، ما يضع المرأة في زاوية حرجة في حال حاولت أن تؤدي «دور الجندي»، ودورها الجندي في أن واحد «لأن أي شكل من أشكال الأنوثة تبديه المرأة يهدد بوصفها على أنها ليست جندياً حقيقياً، وفي حال أخفقت في إظهار أنوثتها، فإنها تعتبر ليست امرأة حقيقية». تتوقف باميليا ديلاجي عند قضية العنف الجنسي وصحة المرأة في الحرب والتحديات التي تواجه النساء في الإنجاب، فيما تعتني وينونا جيلز في تعقب أحوال «نساء أجبرن على الهرب: اللاجئات والنازحات داخلياً»، معتبرة أن النزوح جزء من تكتيكات الحرب، لنجد المرأة نفسها نازحة داخل وطنها، أو مجبرة على عبور حدود بلادها كلاجئة، وفي الحاليتين «تُدْمغ بهوية جديدة بوصفها نازحة».

الإجبار على الهجرة لا يخلو من عملية سخرة وخدمات جنسية تطل الرجال والنساء والأطفال، وإذا بمعظم اللاجئات يتحولن إلى «عرافس حسب الطلب بالبريد» كجزء من عملية الإتجار بالبشر. تستعرض الباحثة المختصة بقضايا اللاجئين، حوادث عينية من تشاد ودارفور وسريلانكا كحصولهن لحروب إثنية في المقام الأول، الأمر الذي أدى إلى أنواع من النزوح القسري، وإعادة التوطين، والعودة إلى الوطن، أو اللجوء طويل الأمد، وهنا «تصبح العملة الوحيدة التي تملكها الفتيات في أوضاع اللجوء الطويلة والميئوس منها هي أجسادهن». وتخلص إلى أن جحيم الحرب يعني «جندياً»

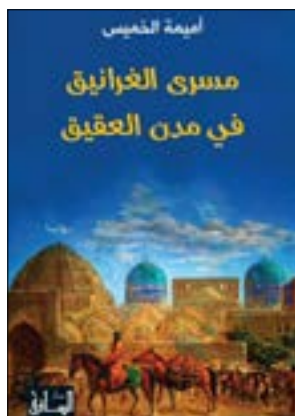
أدت النسويات دوراً أساسياً في كشف العلاقة بين الجيوش الحكومية والبغاء

إلى الجماعات المسلحة، أو تختار الانضمام إليها، ولماذا؟ كما تلفت إلى فئة من النساء يعتبر وجودها مكملاً لتشغيل معظم الجيوش الحكومية، هي «فئة العاملات في الجنس». إذ بقي مصطلح «تابعة للمعسكر» يُستخدم للتعبير عن الاحتقار، وباعتباره مرادفاً لكلمة «عاهرة». وقد أدت النسويات دوراً أساسياً في كشف أن العلاقة بين الجيوش الحكومية والبغاء ليست عرضية أبداً، لذلك نجد أن الحالات التي سُمح فيها للمرأة بالقيام ببعض الأدوار القتالية «لم تفعل سوى القليل لتغيير فكرة القتال على أنه الجوهر الذكوري المحدد للجنس، مع ما يستتبع ذلك من امتيازات ورفع لقيمة الذكورة». في المقابل، تتناول ديان مازورانا أحوال «النساء والفتيات والجماعات المعارضة المسلحة غير الحكومية»، مشيرة إلى انتساب عشرات الآلاف من النساء والفتيات إلى المجموعات المعارضة المسلحة، ومشاركتهن في الصراعات المسلحة في 59 دولة، لأسباب مختلفة، منها الحماية، أو الانتقام، أو الإيديولوجيا السياسية، والعنف والظلم، وحتى الهروب من الزواج القسري. لا تكتفي «المجموعات المتهمدة» بمشاركة النساء في المعارك بل استخدامهن كاتحاريات بقصد تحسين فرص نجاح المهمة. لكن هذا الأمر لا يعني المساواة بين الذكورة والأنوثة، فلطالما تم نبذ هذه النماذج من محيطهن، بالإضافة إلى تعرضهن للاغتصاب. في باب آخر، تتناول ملاذي دي أولبن، وجولي ميرتوس، وتازرينا سجاد، وقائع من مشاركة المرأة في عمليات السلام بانتهاء الحرب، وصعودها إلى مناصب سياسية عليا، كما حدث في سريلانكا بانتخاب أول رئيسة دولة في العالم (1960). إلا أن بعض الاستثناءات لا تعني حضوراً فاعلاً للمرأة في هذا المجال، على عكس حضورها في عمليات نزع السلاح والتسريح وإعادة الدمج في بناء السلام، وصولاً إلى عملها الفعّال في مرحلة ما بعد الحرب.

وتالياً فإن نزع الصفة السياسية عن سياسة المرأة لا يقتصر على كونه مهيناً، إنما تترتب عليه آثار سلبية وخيمة تضع المرأة في مجال خاص وضيق هو «المنزل، بجانب الموقد». من جهتها، تؤكد جينيفر ماذرز في «المرأة والقوات العسكرية الحكومية» أن وجود النساء في الجيوش الحكومية يزعزع الروايات التقليدية عن الحرب، وتعيد هذه النظرة المستقرة إلى «جندرة المؤسسات العسكرية ذاتها»، ذلك أن تجارب النساء اللواتي يخدمن جنديات في الجيوش الحكومية، تنطوي على هويات متضاربة بوصفهن نساء وجنديات، ما أدى إلى التمييز وسوء المعاملة من قبل الذكور، بالالتكئة على التحليل الجندي لأسئلة من نوع: كيف تُدفع المرأة للانضمام

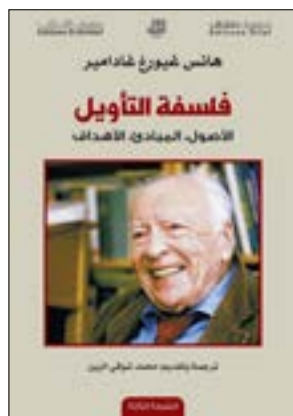
الموت والفقدان والاعتصاب والعنف والتشرد وانعدام الجنسية، بالإضافة إلى تقويض حيوات أعداد هائلة من البشر وتدميرها في بلدان الجنوب. من صفة أخرى، تستكشف كارول كوهن وروث جاكوبسون الأشكال المختلفة من عمل النساء الجماعي في الحرب ضد العسكرية، ومحاولاتهن الانخراط في العمل السياسي المباشر رغم العقبات الذكورية التي تسعى إلى إقصاء المرأة جانباً، وربط نشاطها بمناهضة الحرب والهوية الأمومية. لكن أمثلة كثيرة توردتها الباحثتان تنسف هذه الركائز بوجود منظمات نسوية تدعم الإيديولوجيات العسكرية وبعض الحروب، وتعدان بعض الآثار السلبية التي تترتب على ربط الرجل بالحرب والمرأة بالسلم.

لمحات



أميمة الخميس

«مسرى الغرائيق في مدن العقيق» مؤلف جديد للكاتبة السعودية أميمة الخميس، صدر حديثاً عن «دار الساقى». العمل يحكي قصة الأعرابي مزيد الحنفي، التي تدور في القرن الرابع الهجري، ورحلته من بغداد إلى القدس، فالقاهرة، ثم ثيرون فالأندلس. رحلة يسرها هذه الحنفي بصيغة الأنا عن هذه الرحلة وتفصيلها، لا سيما سفره إلى صحراء الجزيرة العربية، ومواجهته مهمة خطيرة ومكلفة هناك.



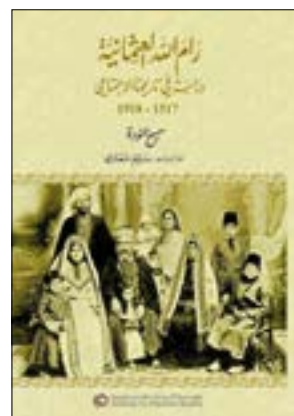
هانس غيورغ غادامير

يشكل «فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف» (منشورات هانس غيورغ غادامير (1900 - 2002) مدخلاً أساسياً إلى الفكر التأويلي. الكتاب الذي ترجمه وقدم له محمد شوقي الزين، يتناول التأويل الفلسفي ومبادئه وأصوله وفق الفيلسوف الألماني الراحل الذي ألهم كتبه أعلام التأويل المعاصر مثل الإيطالي جيانتي فاتيمو والفرنسي بول ريكور والأميركي ريتشارد رورتي وغيرهم.



إباد الجلاّد

بعد «الحقيقة المفقودة»، صدرت رواية «نذير» (نوفل - هاشيت أنطون) لإباد الجلاّد. ينال اليأس من بطل الرواية نذير، وهو يطارد وعداً كاذباً. الأحداث تكمن في خلفية الرواية التي تحاول تظهير عمق الشخصيات والنفس البشرية. هناك سرقة وقتل داخل عالم الرواية المنسي الذي يأخذنا إلى قرية نائية يسكنها بشر هامشيون. أما السكان فتهددهم أمراض فتاكة أهمها الوهم وضلال الطريق.



سميح حمودة

في «رام الله العثمانية: دراسة في تاريخها الاجتماعي: 1517 - 1918» (مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، يتناول سميح حمودة تاريخ رام الله العثمانية بالاستناد إلى سجلات المحكمة الشرعية في القدس، ودفاتر التحرير المتعلقة بالإدارة العثمانية للضرائب التي فرضت على الأراضي والسكان. كذلك يعيد الباحث الفلسطيني النظر في تطور النسيج الاجتماعي لسكان رام الله من نواح عدة أهمها علاقة العائلات الزراعية بالإقطاعيين.



سلامة كيلة

يبعث سلامة كيلة في البيئة التي أنتجت الجهاديين في كتابه «صورة الجهاد: من تنظيم القاعدة إلى داعش» (منشورات المتوسط). يركز الفكر الفلسطيني اليساري على ظروف الفقر والتهميش التي وظفت واستغلت ضمن مسار سياسي أشمل. لا يكتفي الكاتب بالنظر إلى ظاهرة التطرف من منطلق ديني فحسب، بل من مستويات وتداخلات سياسية واستراتيجية توازي مقدرة دول لا مجتمعات فقيرة.



جورج كدر

يقدم جورج كدر معجماً لمعبودات وآلهة العرب القدماء في مؤلفه «معجم آلهة العرب قبل الإسلام» الذي صدرت الطبعة الثانية منه عن «دار الساقى» أخيراً. يجمع الباحث السوري أسماء مئات الأصنام والمعبودات التي تظهر تنوعاً حضارياً وعقائدياً وثقافياً راكمته «جزيرة العرب» بفضل موقعها الجغرافي ومكانته السياسية والتجارية. هناك آلهة كوكبية، وآلهة الخصب والموت وغيرها من آلهة العرب قبل الإسلام.